أسرار حظر تربية أنثى الماشية في منطقة تونسية ولزوم ختان كلّ الذكور في المجتمعات العربية الإسلامية

أ.د. محمود الذوادي •

موضوع البحث

يرى علم الاجتماع الحديث أن أفراد المجتمعات البشرية ينحرفون قليلا أو كثيرا أو بدرجة متوسطة بينهما عن القوانين والأعراف والقواعد الثقافية في مجتمعاتهم. لكن الأمر قد يختلف في بعض القواعد والأعراف الثقافية في المجتمعات العربية والإسلامية التي قد لا تسمح إطلاقا بالانحراف عنها. يمثل هذا البحث محاولة معرفية ذات رؤية اجتماعية نفسية أنثروبولوجية [1].

لتسليط الضوء بالتحليل والنقاش على ظاهرتين رئيسيتين يلتزم فيها جميع مواطني (دون استثناء) تلك المجتمعات بالتقيد المطلق بتلك القواعد والأعراف الثقافية [2] على المستويين : المجتمع المحلي الصغير(أ- المايكرو) والمجتمع العام الكبير (ب- الماكرو) كما يتبين في المثالين:

أ - حظر تربية أنثى الماشية من الحمير والخيول والبغال في منطقة الشمال الشرقي للقطر التونسي.

ب- وجوب ختان جميع الذكور المسلمين في المجتمعات العربية.

وبالتعبير السوسيولوجي،فلا مكان للسلوك المنحرف في هاتين الظاهرتين. أي هناك مطابقة

• قسم علم الاجتماع - جامعة تونس

تامة conformity. فالناس يطيعون مائة في المائة ما تمليه القواعد والأعـراف السائدة حول الظاهرتين. وهو أمر يختلف مع رؤية علم الاجتماع الغربي الحديث الذي يرى ضرورة وجود السلوك المنحرف البشري في كل الظروف. وعليه، فعلم الاجتماع العربي مدعو لفسح المجال فكريا ومعرفيّا للتعامل مع تلك الخصوصية لمنظومة الثقافة العربية الإسلامية التي لا تقبل السلوك المنحرف على المستويين المحلي المحدود (منطقة الشمال الشرقي التونسي) والعام الكبير(وجوب ختان كل الأطفال الذكور المسلمين في المجتمعات العربية) عن قواعدها وأعرافها في الظاهرتين أعلاه.

مفهوم التأثير الاجتماعي الكامل

بناء على ما ذُكر في السطور السابقة، فإن سلوك كل الناس في الظاهرتين يلتزم التزاما كاملا بما تمليه قواعد وأعـراف المجتمع الصغير أو الكبير. فنسمي طبيعة هذا التأثير بأنه تأثير اجتماعي ثقافي كامل. أي يشمل جميع الناس دون استثناء بحيث لا يوجد أي فرد في المحيط الاجتماعي الصغير/المحلي أو الكبير الذي لا يتأثر به. لقد أشارت دراسات سابقة (الذوادي 2006 : 269–287) إلى أن الناس في منطقة الشمال الشرقي التونسي (مدينة رأس الجبل وقرى غارالملح ورفراف وصونين والماتلين والعالية) لا يربون مطلقا ماشية الإناث من بغال وخيول وحمير الأمر الذي جعل عندهم تربية الأنثى من تلك الحيوانات وصمة عار اجتماعي كبير لا يجوز القبول به على الإطلاق. أدت قوة رسوخ ثقافة العار هذه وانتشارها الكامل بين سكان هذه المنطقة إلى تحاشي تسمية حتى العناصر الجامدة تسمية أنثى. فأهل مدينة رأس الجبل والقرى المجاورة المشار إليها سابقا يُذكِّرون مؤنث «الكَمْيُونَة»: (كلمة فرنسية تعني عربة نقل البضائع والناس) لتصبح عندهم «كَمْيُونْ»، أي مسمى ذكوري ! وبعبارة أخرى، فتأثير الأعراف والقواعد الثقافية الجماعية على كل سكان هذه المنطقة تأثير شامل وكامل وقاهر لا يعرف استثناء بين المواطنين هنا.أي أن جميعهم لا يربون إلا ماشية الذكور من حمير وبغال وخيول. وإنه لضرب من العار في ثقافتهم تربية الأنثى من تلك الحيوانات. وبالتالي، فَمجرد ذكْرِ ماشية الأنثى أمامهم أو الحديث معهم عنها أو مساءلتهم إن كانوا يملكونها يثير ردود فعل سلبية متنوعة تتراوح بين الشعور بالخجل والغضب والعنف. فثقافة العار إزاء تربية الماشية الأنثى هي الثقافة الاجتماعية السائدة لدى أهل هذه المنطقة من البلاد التونسية، بحيث هناك مشروعية قوية في نعت التأثير الاجتماعي على الأفراد في هذه المنطقة بأنه تأثير اجتماعي قاهر يشمل الجميع ولا يستثني أحدا كما تؤكد ذلك البحوث (الذوادي287 ـ 2006:269).

تتجلى في المثال المذكور مدى مركزية ما يُسمى البعد الثالث للإنسان /الثقافة (اللغة والفكر والدين والمعرفة/العلم والقيم والأعراف الثقافية ...) في هوية سكان تلك المنطقة. يأتي مصطلح البعد الثالث للإنسان عندنا كإضافة للتصور المألوف الذي ينظر إلى الإنسان على أنه جسد وروح (ثنائي الطبيعة) كما هو سائد في الثقافات البشرية عبر العصور. فمنظومة البعد الثالث كرموز ثقافية تضيف ذلك الجانب المنقوص في هوية الإنسان والذي يعتبره الأستاذ الذوادي بيت القصيد في هوية الإنسان (الذوادي 2015). وهكذا، فثقافة العار المحلية عندهم المانعة لتربية ماشية الأنثى تجعلهم لا يأبهون كثيرا بالقواعد الطبيعية والسليمة السائدة في بقية مناطق القطر التونسي بالنسبة لتربية الماشية. وتتمثل تلك القواعد الثقافية في أن تربية الماشية من الذكر والأنثى أمر عاد وطبيعي. وبعبارة أخرى، فقوة رموز ثقافة العار بالنسبة لتربية الماشية الأنثى في هذه المنطقة تجعلهم قادرين بالكامل على المحافظة على تلك العادة التي تصطدم في وضح النهار مع الأعراف الثقافية السائدة (تربية الإناث والذكور) بالقطر التونسي. يؤكد هذا مركزية منظومة البعد الثالث للإنسان/ الرموز الثقافية في توجيه وتحديد أنماط السلوكيات لدى الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية.

أما عُرف ختان جميع الأولاد الذكور المسلمين من كل الفئات والطبقات الاجتماعية المسلمة في المجتمعات العربية فهو أيضا عرف قاهر يشمل الجميع دون استثناء في قيام العائلات الفقيرة والمتوسطة والغنية على حد سواء بالختان والاحتفال به. يرى عالم الاجتماع الدارس لهذه الظاهرة أن وجه التشابه بين هاتين الظاهرتين يتمثل في التالي: انتشار كل من الظاهرتين بطريقة شاملة وكاملة بين كل الناس. فمن جهة، لا يربي جميعُ سكان تلك المنطقة التونسية الماشية الأنثى من بغال وخيول وحمير. ومن جهة أخرى، تقوم كل العائلات المسلمة في المجتمعات العربية بختان أبنائها والاحتفال بهذا الحدث. يتجلى لعالم الاجتماع في هاتين الظاهرتين قيمةُ مدى اهتمام الناس على مستوى رموزهم الثقافية وتقديرهم لعامل الذكورة في الظاهرتين (شرابي 1992). يتضح هذا في الشعور في الحالة الأولى بالعار إزاء تربية الماشية الأنثى في تلك المنطقة. ويتجلى الأمر في الحالة الثانية في اعتبار أن ذكورة الولد ورجولته لا تتم بدون عملية الختان. وهكذا، يسجل عالم الاجتماع في سلوك الالتزام المطلق بختان الأولاد الذكور مدى صدارة الذكورة كقيمة ثقافية اجتماعية مركزية في صلب النسق الثقافي الاجتماعي للمجتمعات العربية المسلمة.

ومن ثمَّ، يجوز القول إن التأثير الجماعي المطلق بإيحاء منظومة البعد الثالث للإنسان /

الرموز الثقافية هو مفهوم جديد لا نجده في أدبيات علم الاجتماع، على سبيل المثال. فعالم الاجتماع الكبير إيمانويل ولرنستاين Immanuel Wallerstein لا يُقر بوجود مفهوم التأثير الجماعي المطلق كما يوُصف في هذا البحث. إذ يقول «فنحن نرى أنه من المسلّم به أن معايير ثقافة المجموعات البشرية (على كل المستويات) لا يقع أبدا بها بالكامل من طرف كل أعضاء تلك المجموعات» (Calhoun 2007 : 427). وهـذا مخالف للمعايير الثقافية الـواردة في المثالَين السابقين. وعلى هذا الأساس، هناك مشروعية للباحث الاجتماعي أن يتساءل: هل إن تأثير تلك الأعراف والقواعد الثقافية على سلوكيات كل الناس أمر ينطبق أيضا على مجموعات ومجتمعات غير عربية وغير مسلمة ؟ ومهما كانت طبيعة الإجابة، فإن فهم وتفسير سبب وجود التأثير المطلق للقواعد والأعراف الثقافية على جميع سلوكيات الناس في عينة المثالين المذكورين أمران مطلوبان بقوة من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا على الخصوص .فالإجابة عن ذلك اللغز تحتاج إلى نوع من البحث الأساسي في دنيا نسق البعد الثالث للإنسان والبنية الاجتماعية للمجتمعات العربية المسلمة.

خصوصية علم الاجتماع العربي

استنادا على التعريف السابق لمفهوم التأثير الاجتماعي الكامل وتوضيح معالمه في المجتمعات العربية ذات الأغلبية المسلمة، فإن المرء يستطيع أن يدعي أن هذا المفهوم قادر على إنشاء علم اجتماع عربي ذي سمات خاصة به. إن علم الاجتماع الغربي يتبنى عموما مفهوم التأثير الاجتماعي غير المطلق. ومع ذلك، فالباحثُ الاجتماعي الموضوعي يتوقع إمكانية وجود التأثير المطلق في مجتمعات أخرى من بينها المجتمعات الغربية ، لكن ربما لم ينتبه إليه لا علماء الاجتماع في الغرب ولا لدى علماء اجتماع آخرين. إذ هناك صعوبة كبيرة في الاعتقاد أن البلاد التونسية هي الوحيدة التي يسود فيها تأثير الأعراف والقواعد الثقافية على كل سكان تلك المنطقة – بسبب العوامل البيئية الضيقة ، التي سنفصل القول فيها لاحقا – مما أدى إلى غياب تربية الماشية الأنثى بالكامل من خيول وحمير وبغال. فتلك العوامل البيئية أو ما يشابهها لا بد أن تكون موجودة في أقطار أخرى عبر مناطق أخرى على الكرة الأرضية.

أما بالنسبة لشعيرة وجوب ختان جميع الذكور المسلمين في المجتمعات العربية ، فإنه يمكن مقارنتها بمدى تطبيق هذه الشعيرة بين الذكور اليهود للتعرف لدى المجموعات اليهودية على

طبيعة تأثير الأعراف والقواعد الثقافية اليهودية على ختان الذكور لديها. وكيف ما ستكون نتائج البحث عن مفهوم التأثير المطلق للقواعد والأعـراف الثقافية في مجتمعات غير عربية وغير مسلمة، فإن حضور ذلك وبقوة في ثقافة المجتمعات العربية المسلمة يدعو ، كما قال عالم الاجتماع الشهير شارلس رايت ملس Charles W. Mills ،إلى خيال سوسيولوجي واسع الآفاق لفهم وتفسير غياب أو وجود التأثير المطلق للقواعد والأعراف الثقافية على جميع سلوكيات الناس في المجتمعات البشرية صغيرها وكبيرها.

ظاهرة الختان في المجتمعات البشرية

يُعتبر كتاب 'تاريخ الختان من أصوله الأولى إلى أيامنا هذه' كتابا فريدا من نوعه في الموضوع لعالم الأنثروبولوجيا والمحلل النفسي مالك شبل الذي ينحدر من الجزائر والمقيم في فرنسا حتى رحيله أخيرا 2016. وُجدت شعيرة الختان منذ العهود الفرعونية القديمة في التاريخ السحيق. فهي شعيرة واجبة لدى اليهود والمسلمين تمثل في الوقت نفسه طقوس تغيير المركز الاجتماعي للفرد passage rites وممارسة دينية وصحية. يتطرق هذا الكتاب إلى كل أبعاد ظاهرة الختان: التاريخية والدينية والاجتماعية والجنسية والشبقية erotic والجراحية. يذكر صاحب الكتاب أن هناك مليارا من يقع ختانهم اليوم. لكن توزيع ظاهرة الختان في القارات الخمس ليس متساويا. فعلى سبيل المثال، إن القارتين الأوروبية والأمريكية لم تكونا تمارس كثيرا شعيرة الختان منذ بعض العقود. ومن ناحية أخرى، فالقارتان الإفريقية والآسيوية (ما عدا الصين واليابان) هما قارتان تسكنهما فئات وشعوب تمارس أغلبية ذكورها عملية الختان رغم الاختلاف البيّن في أسباب ذلك. إن اللافت للنظر بهذا الصدد هو ازدياد نسب الختان في المجتمع الأمريكي والكندي والسويسري والهندي. وفي مقابل ذلك، فانتشارها أكثر بطئا في انكلترا وفرنسا حيث تمارسها خاصة الأقليات المسلمة التركية والعربية والباكستانية والفارسية والإفريقية التي وصلت إلى هذيْن البلديْن منذ مدة قصيرة (Chebel 1997 :37).

يطرح المؤلف عديد الفرضيات المفسّرة لظاهرة الختان. فهي تمثل لدى اليهود والمسلمين شعيرة دينية رمزية تهدف إلى تحقيق أمريْن: اعتراف بالله الخالق وطاعة أعراف مجموعة الانتماء (المصدر السابق :147–48). ومن ناحية أخرى، يجوز الافتراض أن الختان عبارة عن اعتبار العضو الذكري مصدر الحياة. يذكر شبل فرضيات أخرى تحاول تفسير ظاهرة الختان المنتشرة في كثير من المجتمعات. لكنه يبقى صامتا عن الأسباب التي تجعل جميع العرب المسلمين

مثلا يتقيدون بالختان، بينما أن بعض المسلمين لا يمارسون حتى أركان الإسلام الخمسة مثل الصوم والصلاة. ومن ثمّ، فالرمز الديني للختان غير كاف لتفسير الإلتزام الكامل بشعيرة الختان لدى الأطفال الذكور في المجتمعات العربية الإسلامية. فأهمية القيمة الثقافية للذكورة في هذه المجتمعات قد تكون عاملا حاسما في منع الانحراف عن أعراف لزوم الختان. يساعد عامل القيمة الثقافية العالية للذكورة على تفسير ختان جميع الذكور لكن لا كل الإناث في مجتمع عربي مسلم مثل المجتمع المصري حيث يمارس الختان للذكور والإناث معا خلافا للمجتمع التونسي الذي يقتصر الختان فيه على الذكور فحسب.

مقارنة بوجوب ختان كل الأطفال الذكور المسلمين في المجتمعات العربية، فإن ظاهرة ختان الذكور في المجتمعات الأخرى تختلف عما ذُكر لدى الأطفال المسلمين في المجتمعات العربية. فالختان يمثل ظاهرة اجتماعية في عديد المجتمعات المختلفة تشمل الذكور والإناث أو الذكور فقط في الكثير من المجتمعات مثل المجتمع التونسي. ويمكن تصنيف المجتمعات بخصوص هذه الظاهرة إلى ثلاثة أنواع: مجتمعات لا تمارس الختان ومجتمعات تقوم بختان الأغلبية من الأطفال الذكور ومجتمعات يتعرض فيها جميع الأولاد الذكور إلى عملية الختان، كما هي الحال في المجتمعات العربية الإسلامية. تفيد المعطيات أن معظم الرجال في مجتمعات العالم لا يقع ختانهم اليوم (Gollaher 2000). أما المجتمع الأمريكي فينتمي إلى تلك المجتمعات التي تمارس ختان أطفالها الذكور بطريقة محدودة. تشير الإحصائيات إلى أن أكثر من مليون طفل أمريكي يقع ختانهم سنويا. لكن ،عرفت ظاهرة الختان تراجعا منذ الثمانينات من القرن العشرين.فقد كانت نسبة ختان الأطفال الذكور بين 80 % و90 %. فتراجعت اليوم لتصبح ما يقرب من 65 %. قد يعود ذلك إلى أثر حجج خطاب في المجتمع الأمريكي يرى أن الختان يمثل اعتداء جسديا ونفسيا يعزز المواقف الثقافية التي لا تكترث بسلامة أجساد الرجال. يعبر هذا عن قبول ضمني للعنف كجزء من حياة الرجال. لكن، أحرزت ظاهرة الختان اهتماما أكبر أثناء الحرب العالمية الثانية بدعوى أن الختان قلّل من 'المشاكل الصحية'. ونتيجة لذلك، فإن الأمهات والآباء المتعلمين المنحدرين من الطبقة الوسطى مارسوا دائما تقريبا الختان للمولودين الذكورالجدد. وهكذا، أصبح الختان عرفا أمريكيا متداولا.

تفسيرظاهرة غياب تربية ماشية الإناث

نركز في بقية البحث على فهم وتفسير ظاهرة الاقتصار الكلي على تربية الماشية الذكور

للبغال والخيول والحمير عند كل من فلاحي مدينـة رأس الجبل ونظرائهم في قرى غار الملح ورفراف وصونين والماتلين والعالية بالبلاد التونسية [3]. ومن ثم، فنحن نطمح إلى الإجابة على التساؤل المشروع التالي : ما هي الأسباب (أو ما هو السبب ؟) التي جعلت الناس في هذه المناطق لا يربون إلا الماشية الذكور من حمير وخيول وبغال؟ ومن منظور العلوم الاجتماعية، فمثل ذلك التساؤل يعتبر تساؤلا ذا مشروعية قوية. إذ إن الغياب الكامل لتربية ماشية الإناث من تلك الحيوانات لا يمكن إلا أن يشد انتباه أي باحث اجتماعي يتمتع بالفضول وبدقة الملاحظة. فعدم تربية ماشية الإناث يمثل في حد ذاته انحرافا عن طبيعة الأشياء في دنيا تربية الماشية. فالعُرف وطبيعة الأشياء يقتضيان أن يقوم الفلاحون على الخصوص بتربية الذكر والأنثى من الماشية. ولا يعنـي هذا بأي حال من الأحوال أن يتساوى عدد الإناث مع عدد الذكور، وإنما يعني أن يوجد جنبا إلى جنب جنسا الذكور والإناث من الماشية بنسب معقولة تسمح في نهاية المطاف بالتناسل الذي يضمن استمرار وجود التوازن بين الجنسين. أما أن لا يربي الناسُ في تلك المنطقة إطلاقا ماشية الإناث من الحمير والبغال والخيول ، فإن ذلك يدعو إلى أكثر من تساؤل عند الباحث الاجتماعي للتعرّف على المتغيّرات (العوامل) التي يمكن الكشف عنها لإرساء تفسير يتمتع بالمصداقية بالنسبة لهذه الظاهرة الغريبة.

ولا يكتفي هذا البحث بمحاولة التعرف على أسباب اقتصار الناس في هذه المنطقة على تربية ماشية الذكور بل يطمح أيضا إلى محاولة معرفة ما إذا كانت لهذه الظاهرة آثار على صورة المرأة (الأنثى) عند الرجل في مدينة رأس الجبل و القرى المجاورة لها : ما هي احتمالات تأثير المواقف (الاتجاهات the attitudes) والقيم الثقافية التي نشأت بسبب هذا الواقع الاجتماعي بخصوص العزوف عن تربية ماشية الإناث على مواقف وقيم رجال هذه المنطقة التونسية المحدودة من النساء ؟

منهجية تفسير الظاهرة

تمثل الملاحظة الميدانية والمقابلات الأدوات المنهجية الرئيسية التي استعملت في هذا القسم من البحث. فنظرا لانحدارنا من قريتي قلعة الأندلس وعوسجة ومنطقة أوتيك الفلاحية القريبة من مدينة رأس الجبل والقرى الأخرى ، فإنه معروف لدينا بمجرد الملاحظة عند زيارة تلك المنطقة أن الناس هناك لا يربون إلا ماشية الذكور من الخيول والبغال والحمير. أما بالنسبة للمقابلات التي قمنا بها لجمع بعض المعطيات التي تساعد على تفسير الظاهرة المدروسة ، فقد

اقتصرنا على اختيار عينتين لذلك الغرض :

(أ) مقابلة عينة من عشرة فلاحين من كل من مدينة رأس الجبل وقرية رفراف.

(ب) أما العينة الثانية التي لجأنا إليها في هذه الدراسة فهي عينة طلابية تنحدر من تلك المنطقة. فاستجوبنا البعضَ من هؤلاء الطلبة وكلفنا بعضهم الآخر بمساعدتنا على القيام ببعض الاستجوابات داخل الأسر حول ظاهرة تربية ماشية الذكور فقط. إن مقابلة العينة الطلابية المكوّنة من طلاب وطالبات كانت مهمة خاصة بالنسبة لتمكيننا من سهولة مساءلتهم عن صورة المـرأة في هذه المنطقة. وهي قضية تحاشينا طرحها على عينة الفلاحين التقليديين ، إذ إن مساءلتهم عنها لا تخلو من الإحـراج. وهكذا، فقد أعاننا استجواب عينة الطلبة والطالبات العشرة على التعرف نوعا ما على صورة المرأة في تلك المنطقة اليوم.

طرافة ردود فعل المبحوثين عند استجوابهم

إن الاستجوابات التي قمنا بها مع كل من عينتيّ الفلاحين والطلبة حول أسباب ظاهرة تربية ماشية الذكور فقط أثارت ردودَ فعل مختلفة عن طرح السؤال عليهما: ما هي في رأيكم الأسباب التي دفعت بالناس والفلاحين على الخصوص في هذه المنطقة إلى عدم تربية الماشية الأنثى ؟

أما الطلبة فقد بدا على أغلبهم موقف التعجب من مضمون السؤال نفسه. أي أن مساءلتهم عن الغياب الكامل لتربية ماشية الإناث كانت تمثل مفاجأة لهم. وبعبارة أخرى، يبدو وكأنهم لم يكونوا واعين حتى بوجود الظاهرة رغم غياب تربية ماشية الإناث الملموس والمعايش من طرفهم في تلك المناطق. إن مفاجأة السؤال لهم طالما اقترنت عندهم بالابتسام والضحك وملامح الحيرة. وهي ردود فعل سلوكية تفسرها لنا إحدى مدارس الفكر السوسيولوجي الحديث والمسماة بمدرسة الإثنوميثودولوجيا (Ritzer، 1983 : 326– 357). فهذه الأخيرة ترى أن سلوك الأفراد والجماعات يوجهه ويتحكم فيه إطار المعايير والأعراف والقوانين الثقافية الاجتماعية. وإن انهيار هذه الأخيرة يُحدث بلبلة في ذهن الفرد والجماعة ويؤدي في غالب الأحيان إلى حالة ذهول واستغراب محيّرة عادة ما تقترن بالابتسام والضحك. فمساءلة الطلبة عن أسباب غياب تربية ماشية الإناث عملت على توعيتهم بالظاهرة التي لا يكاد يتفطن لها أحد في بيئة تربية ماشية الذكور فحسب. وبهذه المساءلة انهارت الرؤية التقليدية لتربية الماشية عند الطلبة وبدت على ملامح وجوههم الحيرة المقترنة بشيء من الابتسام والضحك[4].

وخلافا لرد فعل الطلبة هذا، فإن مساءلة الفلاحين عن غياب ظاهرة تربية ماشية الإناث لم

يكن يمثل مفاجأة لهم. إذ هم يعرفون ذلك كنتيجة لممارستهم ومعايشتهم للفلاحة أكثر من أبنائهم وبناتهم الدارسين بالجامعة. ومع ذلك، فإن عينة الفلاحين المستجوَبة كانت تعطي انطباعا بأنها تشعر بنوع من الحرج في الحديث في موضوع غياب تربية ماشية الإناث في تلك المنطقة. وهذا الشعور يعدّ شعورا مشروعا من وجهة نظر العلوم الاجتماعية. فتربية ماشية الإناث تكاد تكون شيئا ينتمي إلى عالم المحرّمات لدى هؤلاء بحكم عادة الاقتصار على تربية ماشية الذكور التي ألفها الفلاحون عبر الأجيال. ومن ثم، فلا غرابة من وجهة نظر العلوم الاجتماعية أن يقترن الحديث عن عدم تربية ماشية الإناث بقدر قليل أو كثير من الحرج وعدم الارتياح عند هؤلاء الفلاحين. إذ كيف لا وتربيتها أصبحت تمثل عارا عند هؤلاء السكان.

ندرة إناث البقر والحيوانات الأهلية

تفيد استجواباتنا لعينتي الفلاحين في كل من رأس الجبل ورفراف بأن بعض العائلات تقوم فعلا بتربية ماشية البقر الحلوب ، ولكن تبقى هذه الظاهرة ،مع ذلك، محدودة أو نادرة . ففي منطقة رأس الجبل يقدّر عدد العائلات التي تربي ماشية البقر الحلوب بثمانين (80) أسرة فقط. أما في قرية رفراف فيبدو أن عدد العائلات المربية للبقر الحلوب لا يتجاوز أكثر من خمس عشرة (15) عائلة. ويُقرّ الفلاحون الذين تمّ استجوابهم بأن الحليب المتحصل عليه يستعمل أساسا محليا، فيستهلك معظمه في المقاهي. وهذا يعني أن بيع الحليب في منطقتي رأس الجبل ورفراف وبقية المناطق الأخرى التي يشملها هذا البحث لا يمثل ظاهرة واسعة الانتشار.

أما بخصوص تربية الحيوانات الأهلية ، فيبدو أن النمط الذكوري هو الغالب أيضا. فبينما تقول عينة فلاحي رأس الجبل بأن تربية الكلاب الذكور تنتشر في المدينة، تذهب عينة فلاحي رفراف إلى أن تربية الكلاب الذكور تستعمل للحراسة من الخنزير خاصة خارج القرية. أما تربية إناث الكلاب فهي معدومة في رفراف وموجودة برأس الجبل بقلة في حدائق الفلاحة (السّوَاني) . وبخصوص تربية القطط فيبدو أنها ظاهرة نادرة عموما وأن جنس الأنثى منها ينعدم وجوده بين سكان قرية رفراف على الأخص. وبالتعبير السوسيولوجي فإن مناطق رأس الجبل ورفراف وغار الملح وصونين والماتلين والعالية تمثل نسقا متكاملا لتربية الماشية والحيوانات الأهلية. من أهم ملامح هذا النسق هو تربية الماشية/الحيوانات الأهلية الذكور ، من ناحية ، وانعدام أو ندرة الحيوانات الأهلية من الإناث من ناحية أخرى . وكأي نسق، فهو لابد أن يفرز قيما ثقافية عند أهل المنطقة بخصوص صورة الحيوان الأهلي/الماشية الأنثى عندهم: أي نظرهم

إلى كل من الجنسين برؤية إيجابية أو سلبية أو بمزيج من الاثنتين. والسؤال المهم هنا على مستوى التنظير السوسيولوجي هو كيف يمكن أن تؤثر القيم الثقافية لنسق تربية الماشية والحيوانات الأهلية على القيم الثقافية لنسق مجتمعات تلك المناطق من حيث صورة ومكانة المرأة (الأنثى) بها ؟ أي هل هناك تأثر وتأثير بين النسقين أم هناك إقصاء بينهما ؟

ما وراء الاقتصار على تربية ماشية الذكور

تفيد استجواباتنا لعينة الفلاحين أن هناك سببين رئيسيين وراء اقتصار تلك المناطق الفلاحية على تربية ماشية الذكور . ويتمثل هذان السببان في :

1. ضيق المناطق الزراعية التي لا تسمح بتربية ماشية الإناث لأن ولادتها تُسبب زيادة في حجم عدد رؤوس الماشية من الذكور والإناث .
2. الاعتقاد بأن القوة العضلية لذكور البغال والخيول والحمير تستجيب أكثر لمتطلبات الصعود والنزول في تلك المناطق التي تكثر فيها الجبال والتلال والهضاب.

فظاهرة الغياب الكامل لتربية ماشية الإناث من الحمير والبغال والخيول في هذه المناطق تفسرها إذن حتمية بيئية/ إيكولوجية . فمن جهة ،إن تربية ماشية الإناث من خيول وحمير وبقر ومعز وغنم سوف يؤدي إلى اكتظاظ حيواني شبه مؤكد بالنسبة لتلك المناطق الضيقة جدا من حيث المساحة والخالية من السهول، وأن تربية المواشي المولودة يتطلب شهورا وأعواما أحيانا قبل أن يمكن التخلص منها وذلك ببيعها بأثمان تدرّ أرباحا مناسبة . ومن جهة ثانية ، فإن تنقل الفلاحين صعودا وهبوطا بين الجبال والهضاب والتلال يحتاج إلى نوع من الماشية التي تتمتع بقوة عضلية أكبر . وذكور الماشية تتفوق عموما على إناثها على هذا المستوى خاصة إذا علمنا أن تنقل الفلاحين في هذه المناطق لا يقتصر على مجرد التنقل بالركوب عليها بل يشمل في معظم الأحيان وضع أحمال ثقيلة عليها. وهكذا يندرج السببان المشار إليهما في رؤية الحتمية البيئية. أي أن وعر العمل والتنقل في أراضي تلك المناطق ومحدودية مواردها الفلاحية الصالحة لتربية الأعداد الضخمة من الماشية وضيق المساحات المناسبة لتربية ماشية الإناث وأولادها وانتشار وصمة العار بين السكان لمن يربي أنثى الماشية، كلها عوامل لم تساعد على تشجيع الناس والفلاحين في مناطق رأس الجبل ورفراف وغار الملح وصونين والماتلين والعالية على تربية ماشية الإناث [5].

العوامل الثقافية في الميزان

وعلى الرغم مما للعامل البيئي من واقعية في إفراز ظاهرة الاقتصار على تربية ماشية الذكور

في تلك المناطق ، فإن رؤية العلوم الاجتماعية لا تلغي احتمال وجود مؤثرات أخرى قد تكون هي السبب الأول أو هي السبب المساعد في تبلور هذه الظاهرة الاجتماعية أو تلك ، خاصة وأن الظواهر الاجتماعية طالما تكون متأثرة بأكثر من عامل . ومن ثم ، فإنه يمكن طرح فرضية العامل الثقافي كسبب رئيسي أو مساهم في انتشار ظاهرة تربية ماشية الذكور في هذه المناطق. وبعبارة أخرى ، هل هناك عقائد دينية وقيم ثقافية بين سكان هذه الجهات عملت على الحد الكامل لتربية ماشية الإناث ؟ إن الإجابة على هذا السؤال المشروع يحتم التعرف على الخلفيات الدينية والثقافية لهؤلاء السكان عبر الأجيال. فعلى مستوى العقيدة الدينية ، فسكان تلك المناطق يعتنقون الديانة الإسلامية مائة بالمائة مثل بقية سكان المناطق المجاورة لهم في الشمال الشرقي التونسي أمثال قرى عوسجة وهنشير أتيك الفلاحي . وليس هناك في الإسلام ما يدعو إلى تحريم أو منع تربية ماشية الإناث . بل هناك ما يدعو في الإسلام بطريقة غير مباشرة إلى عكس ذلك . فعلى مستوى احترام الأنثى من بني الإنسان ، فقد انتقد القرآن بشدة عادة وأد البنات في عصر الجاهلية «وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت «؟ (التكوير 8-9) ، «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم» (النحل : 58). فليس بالوارد ،إذن، أن تكون قيم العقيدة الإسلامية وراء امتناع سكان هذه المناطق عن تربية ماشية الإناث خاصة إذا علمنا أن الآيات القرآنية تحفل بالحديث والإشارة إلى حكمة الله في خلق الذكر والأنثى في كل أنواع المخلوقات «سبحان الذي خلق الأزواج كلها» (يسن : 96) ، و»أنه خلق الزوجين الذكر والأنثى»(النجم : 45) ، «فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى» (القيامة : 39)، «قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين» (هود : 43) ، «ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه»(الشورى : 11).

أما على مستوى القيم الثقافية غير الدينية، فليس هناك ما يشير إلى أن سكان هذه المناطق متأثرون بقيم ثقافية حضارية قديمة عرفها القطر التونسي قبل الفتح الإسلامي. فالشخصية القاعدية لسكان هذه المنطقة هي شخصية منصهرة كامل الانصهار، مثل بقية شخصية التونسيين العرب المسلمين الآخرين، في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية. وبالتعبير السوسيولوجي الحديث ، ليس هناك ما يسمح بالقول إن سكان هذه المنطقة يمثلون أقلية متميزة بعقائدها الدينية وقيمها الثقافية الرئيسية عن المجتمع التونسي العربي الإسلامي . بل هم جزء لا يتجزأ من النسق العقائدي الثقافي الإسلامي العربي الكبير للمجتمع التونسي . ومن ثم، فظروف البيئة الفلاحية الضيقة القاهرة هي المؤهلة قبل غيرها لمدنا برؤية فكرية نظرية

تساعدنا على فهم وتفسير ظاهرة غياب تربية ماشية الإناث من الخيول والبغال والحمير.

بروز ثقافة مناهضة لماشية الإناث

وإذا كانت ليس هناك عقائد دينية إسلامية ولا قيم ثقافية عربية أو غير عربية في ثقافة المجتمع التونسي قد ساعدت على عدم تربية ماشية الإناث في تلك المنطقة ، فإن ضيق مساحات الأراضي وقلة مواردها الطبيعية الصالحة لتربية عدد كبير من الماشية وصعوبة التنقل بين جبالها وهضابها وتلالها تصبح العوامل الحاسمة التي أدت إلى الاقتصار على تربية ماشية الذكور ، كما أسلفنا بيان ذلك، ومنه إلى ظهور قيم ثقافية عند سكان تلك المناطق تنظر إلى تربية ماشية الإناث بنظرة تغلب عليها السلبية . أي أن نسق القيم الثقافية في المجتمعات البشرية تساعد على تحديد معالمه المعطيات الطبيعية (الإيكولوجية) لتلك المجتمعات . فالأمر يتعلق هنا بنوع من الحتمية الإيكولوجية الشديدة التأثير في القيم الثقافية للأفراد والمجتمعات.

فتربية ماشية الإنـاث خاصة من البغال والخيول والحمير أصبحت تُعد ضربا من قبيل السلـوك المنحرف (Encyclopedia of Sociology، 1974 : 79– 82). وبالتعبير السوسيولوجي ، فـإن تربية ماشية الـذكور فقط أصبحت هـي المعيار الاجتماعي المقبول مـن طـرف الأفـراد والمجموعات القاطنة بهذه المنطقة. ومنه، بـرزت مواقف وتصورات مزدوجة بخصوص تربية الأنثى والذكر من الماشية. فمن ناحية، أصبحت تربية ماشية الإناث تجلب لصاحبها وصمة العار. ومن ناحية ثانية ، فإن تربية ماشية الذكور أصبحت مفخرة عند سكان تلك المنطقة . ولعل تربية الحمير تفصح أكثر من غيرها عن أهمية معاني الذكورة. فخلافا للبغال والخيول ، لا تُعرف الحمير بأعضائها التناسلية الذكرية فقط بل يعرف الحمار أولا وقبل كل شيء بنهيقه. فنهيق الحمار يمثل رمز ذكورته . وهو ما لا يتوفر بنفس الوضوح والتميّز عند البغل أو الحصان إذا ما قورنت أصواتهما بأصوات البغلة والفرس. أما نهيق الحمار فيتميز بكل جلاء عن نهيق نظيرته الأنثى . وبسبب ذلـك، أصبح نهيق الحمار في هذا الفضاء الثقافي الذكري في تربية الماشية مصدرا للشعور بالافتخار من طرف صاحبه لا يضاهيه في ذلك لا البغلُ ولا الحصان . وهذا ما تذكره القصص التي يرويها البعض عما يوحي به نهيق الحمار بالنسبة للفرد المنحدر من رفراف أو غار الملح مثلا. فنهيق الحمار عند هذا أو ذاك يعتبر الصوت المفصح بكل عزة ومفخرة عن البيئة الذكرية للماشية التي ينحدر منها والتي تشبَّع فيها صاحبُ الحمار من سيادة سلطة الذكر في كل من عالميّ الماشية والمجتمع الصغير الذي وُلد وشبّ وكبُر فيه .

علم النفس الاجتماعي وغياب تربية أنثى الماشية

إن ظاهرة حضور اتجاهات attitudes سلبية إزاء تربية ماشية الإناث في هذه المنطقة تفسرها نظريات العلوم الاجتماعية وخاصة علم النفس الاجتماعي. إذ، إن الأمر هنا يتعلق بتأثير العوامل الخارجية (ضيق مساحات البيئة الفلاحية) على اتجاهات السكان من حيث رغبتهم في الاقتصار على تربية ماشية الذكور، من ناحية، ونفورهم من تربية ماشية الإناث وشعورهم بالعار من القيام بذلك، من ناحية ثانية. إن نظرية ما يسمى بالتنافر الإدراكي Cognitive Dissonance لعالم النفس الاجتماعي فستنجرFestinger تساعد على فهم وتفسير المواقف السلبية لسكان تلك الجهات إزاء تربية ماشية الإناث (Festinger، 1957). فالنظرية تقرّ بأن الفرد يتصف نفسيا بنوع من التماسك الداخلي في عواطفه وأفكاره وتصوراته ومعتقداته. كما أن أفعاله تكوّن نسقا من السلوكيات متوازنا ومتجانسا. وإذا اضطر الفرد إلى أن يؤدي سلوكا يتعارض مع نسق قيمه مما يترتب عليه تصدع التوافق بين عواطفه وبين تصوراته عن آراء الآخرين، تنشأ حالة من التنافر الإدراكي وتسبّب اضطرابا في النسق النفسي للفرد. وعند تطبيق رؤية هذه النظرية على الاتجاه العدائي لسكان تلك المناطق نحو تربية ماشية الإناث، فإنه يمكن إيراد الإيضاحات التالية:

1. يعدّ عدم تربية الأنثى من الماشية عند فلاحي تلك المنطقة ممارسة لا تنسجم مع نسق القيم values system الكبير السائد بالمجتمع التونسي بالنسبة لتربية الماشية. أي أن اتجاه هؤلاء الفلاحين يتنافر مع الاتجاه العام للمجتمع التونسي الذي يزكي تربية الماشية بصنفيها الأنثى والذكر.
2. يسبّب هذا التنافر اضطرابا في النسق النفسي لسكان وفلاحي هذه المنطقة التي هي جزء من المجتمع التونسي على كل المستويات.
3. إن المَخرج من هذا الاضطراب النفسي يحتاج، حسب نظرية التنافر الإدراكي، إلى تعديلات داخلية في نسق العواطف والتصورات والمعتقدات لسكان تلك الجهات حتى يسترجعوا حالة التوافق والانسجام النفسي داخل أنفسهم. ومنه، يصبح الطريق إلى الانسجام النفسي متمثلا في تبني تصورا / أو اعتقادا سلبيا إزاء تربية أنثى الماشية.

فمثل هذه العملية تتناسق تماما مع واقع تربية ماشية الذكور الطاغي في هذه المناطق، كما رأينا. ومن ثمّ، يُوضَع حدّ للتوتر والاضطراب النفسي ويسود الهدوء داخل نسق القيم لقاطني

هذه المنطقة. وهكذا، نفهم معنى الوظيفة التي يقوم بها الاتجاه السلبي لهؤلاء من تربية ماشية الإنـاث. إنه بكل بساطة اتجاه يعمل على إرجاع التوافق بين الأجـزاء المكوّنة لنسق القيّم لهؤلاء السكان

علاقات غياب أنثى الماشية بصورة المرأة

إن الاتجاه السلبي الشائع إزاء تربية ماشية الإناث يجعل الباحث الاجتماعي يتساءل بكثير من المشروعية عن مدى تأثير مثل ذلك الاتجاه على صورة المرأة عند الرجال في هذه المنطقة من الشمال الشرقي التونسي. وتأتي مشروعية هذا التساؤل من عدة أسباب :

أ) فالبحوث الاجتماعية حول المجتمعات الذكورية تفيد بأن الأنثى تعاني من الكثير من الاضطهاد في تلك المجتمعات (شرابي ، 1992). ومن ثم، فالمكانة الاجتماعية للمرأة متدنية وبالتالي صورتها في المجتمع . فصورة المـرأة في هذه المنطقة لابد أن تتأثر في المقام الأول بسلبيات المجتمعات الذكورية التي ينتمي إليها المجتمع التونسي الحديث (شرابي ، 1992) .

ب) وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لصورة المرأة في مجتمع يسود فيه نوع واحد من الذكورة (سطوة الذكر الإنسان) ، فما بالنا بصورة المرأة في محيط تهيمن فيه ذكورة الإنسان وذكورة الحيوان في الوقت نفسه ؟ وكما رأينا، فإن اقتران تربية أنثى الماشية بالشعور بالعار عند سكان تلك المنطقة لا يمكن أن يساعد بالتأكيد على تحسين صورة المرأة هناك.

ت) قد يقول بعضنا إن الصورة السلبية لأنثى الماشية لا تؤثر سلبا على صورة المرأة لأن الأمر يتعلق هنا بمستويين غير قابلين للخلط. إن مثل هذا القول يصعب البرهان على صحته .

فمن جهة ، أثبت علم النفس الحديث وجود مبدأ التحويل Transfer في السلوك الإنساني (Encyclopedia of Psychology، 1973 : 280) ، مثل تأثر ما يتعلمه الإنسان اليوم بما كان قد تعلّمه في الماضي من قبل . ووفقا لمبدأ التحويل يجوز القول بأن الصورة السلبية لأنثى الماشية قد يتحول منه الشيء القليل أو الكثير إلى صورة الإنسانة الأنثى . ومن جهة ثانية ، فإنه صعب أن يكون الفرد البشري قادرا قدرة كاملة على التعامل مع أنثى الماشية بموقف تحقيري والتعامل في الآن نفسه مع الأنثى الإنسانية من موقع لا يتأثر قليلا أو كثيرا بسلبيات اتجاهه نحو أنثى الماشية . إن مثل ذلك التعامل مع صنفي الأنثيين بدون خلط للأوراق بينهما لا يستطيع أن يقوم به البشر

الذين تُكوّن العواطفُ والمعتقدات واللاعقلانية جزءا رئيسيا من طبيعتهم. إن مثل ذلك التصرف قد يكون الكمبيوتر والإنسان الآلي (الروبوت) قادرين على القيام به .

إن الملاحظات الميدانية والاستجوابات لسكان مدينة رأس الجبل وكل من قرى رفراف وغار الملح وصونين والماتلين والعالية تعطينا بعض المؤشرات التي تُقرّبنا من صورة المرأة السائدة في هذه المناطق . فما يسمى بظاهرة «الحزاره « لا تزال متفشية في هذه الجهات. ويمكن تعريف «الحزاره « بأنها محاولة الرجال على الخصوص منع النساء من الخروج من المنزل أو الالتقاء بالرجال الغرباء «البرّانين» خارج المنزل أو داخله . وقد تصل حدّة «الحزاره» درجة متشدّدة جدّا. فالمرأة قد كانت لا يُسمح لها بأن تفتح حتى باب المنزل للطارق «البرّاني» ، إن لم يكن زوجها موجودا ، وأن لا ترفع صوتها لإعلامه بغيابه ، بل أن تكتفي بالتصفيق لإخباره بذلك . وتفيد استجواباتنا بأن حوالي 80 % من الزوجات في مدينة رأس الجبل يُمنع عليهن مقابلة أخوة أزواجهن (أسلافهن) . وأن تقاليد فصل النساء عن الرجال في حفلات الزواج ، مثلا ، لا تزال منتشرة بين العائلات في هذه المنطقة .

إن ظاهرة التشدّد إزاء اختلاط الجنسين خاصة عند الأجيال السابقة للجيل الحالي في هذه المنطقة يفسرها إلى حدّد كبير عامل الخوف من حدوث سلوكيات جنسية منحرفة بين الرجال والنساء. وهو خوف مشروع في نسق القيّم للمجتمع التونسي ككل. ولكن الخوف المبالغ فيه إزاء اختلاط الجنسين، كما تبين ذلك بعض المؤشرات السلوكية أعلاه، في هذه المنطقة هو الذي يمثل خصوصية لسكان هذه الجهات ويحتاج بالتالي إلى تفسير خاص به. فمن ناحية، يمكن إرجاع الخوف المبالغ فيه بالنسبة للسلوك الجنسي للمرأة إلى الصورة السلبية العامة التي تعرفها المرأة كما حاولنا وصف بعض ملامحها في هذا البحث. وبعبارة أخرى ، فإن صورة المرأة السلبية لا تساعد على تعزيز هاجس الثقة بها بخصوص السلوكيات الجنسية المنحرفة التي تنبذها من البداية وبصفة شمولية قيم المجموعات والمجتمعات العربية الإسلامية. ومن ناحية ثانية ، فإن الثقة في السلوك الجنسي للرجل في تلك المنطقة لا تبدو أفضل من تلك التي يمنحها سكان هذه الجهات للمرأة . ولكن انعدام الثقة في السلوك الجنسي للرجل لا يعود إلى الأسباب نفسها التي أدّت إلى التخوّف المبالغ فيه من السلوك الجنسي للمرأة والمتمثل ، كما بيّناه سابقا ، في صورة المرأة السلبية في تلك المنطقة. إن الخوف المبالغ فيه من السلوك الجنسي للرجل لابد أنه متأثر حتما بواقع الاقتصار على تربية ماشية الذكور. فمعروف في الأرياف التونسية أن أنثى الماشية

طالما يلجأ إليها وخاصة من طرف الشباب الأعزب. فهي تمثل إذن متنفّسا جنسيا هاما بالنسبة لعدد من الشباب الذكور بالمناطق الفلاحية حيث تربى أنثى الماشية بطريقة طبيعية .

أما في هذه المنطقة ، محور هذا القسم من هذا البحث ، فتوفر أنثى الماشية من حمير وبغال وخيول يشكو من غياب كامل . ومن ثم ، فالمتنفس الجنسي بالنسبة للشباب الذكور على الخصوص يصبح إذن المرأة أو الرجل . ومن هنا تفهم أكثر أسباب ظاهرة «الحزاره» المتشدّدة بهذه المنطقة. ففي الماضي القريب وجدت محاولة إقصاء المرأة في السابق عن عيون الذكور عن طريق الحجاب عند مغادرتها للمنزل أو منعها من فتح باب المنزل للطارق الذكر... وهي كلها تصرفات تشير إلى مدى انشغال الذكور على الخصوص بمراقبة السلوك الجنسي للإناث . فغياب أنثى الماشية كمتنفّس محتمل للطاقة الجنسية عند الذكور العزاب يكاد يجعل معشر الذكور يعتقدون بأن أي تواصل بين الجنسين حتى وإن كان بمجرّد الصوت والكلام والعين يبقى تواصلا مشبوها ومرتبطا بالدلالات والممارسات الجنسية . ومن ثم، جاءت مشروعية الخوف المبالغ فيه من تلاقي الجنسين . ولا يكاد يختفي ذلك الخوف إلا في ظروف محدودة جدا . وكأن هاجس الخوف هذا أصبح مندسا بعالم اللاشعور لذكور سكان هذه المناطق من الأجيال السابقة على الخصوص . كما أن هذا الخوف المبالغ فيه يمكن أن يكون نتيجة لارتفاع نسبة الخيانات والانحرافات الجنسية بين سكان هذا المحيط الذكري . إن غياب أنثى الماشية ، من جهة، وصعوبة الاختلاط بالمرأة ، من جهة ثانية، يؤديان بالباحث الاجتماعي إلى طرح فرضية انتشار ظاهرة ما يسمى بسلوك الجنسية المثلية homosexuality . فالبحوث الاجتماعية في هذا المجال تفيد بأن البيئة الذكرية هي أحد العوامل التي تزيد من نسبة ممارسة الجنسية المثلية بين الذكور [6].

آفاق التغيير في تربية الماشية

إن التساؤل عن إمكانية حدوث تغيير في المدى القريب أو البعيد عند سكان هذه المنطقة بحيث يسمح لهم "بتطبيع" وجود وتربية الماشية الأنثى يتطلب فحص إمكانية إحداث التغيير في العاملين الرئيسيين اللذين يقفان ، كما تجلى في الصفحات السابقة ، وراء الاقتصار الكامل على تربية ماشية الذكور في هذه الجهات . ويتمثل هذان العاملان الرئيسيان في طبيعة المحيط الفلاحي الضيق، من ناحية ، ونسق القيم الثقافية النافرة من تربية أنثى الماشية ، من ناحية ثانية . وعلى هذا المستوى ، فالعاملان لا يتساويان من حيث درجة قابليتهما لإمكانية التغيير. فالمحيط البيئي(الإيكولوجي) في هذه المنطقة لا يكاد يقبل أي تغيير. فمساحات أراضيه

الطبيعية الضيّقة لا يمكن التوسيع فيها كثيرا حتى باستعمال أكثر أدوات التكنولوجيا الحديثة تقدّما للتخلص من التلال والهضاب والجبال . وإن قُبل ذلك على مضض من أجل توسيع غير كاف للفضاء الفلاحي، فإن مثل ذلك التغيير لطبيعة البيئة لا يجد قبولا إطلاقا من وجهة النظر الإيكولوجية. إذ أنه يعد كارثة مريعة لنظام البيئة الطبيعية الذي يزداد الحرص على سلامته اليوم على مستوى كوكبنا الأرضي.ويأتي المؤتمر العالمي للمناخ في آخر شهر ديسمبر 2015 دليلا على ذلك القلق العالمي المتزايد على تدهور البيئة المضر بالمناخ [7]. فلهذه الأسباب يمكن القول بأن تغيير طبيعة البيئة الفلاحية في هذه المنطقة غير مرغوب فيه إيكولوجيا وغير قادر على حسم معضلة ضيق المساحات الزراعية التي يشكو منها الفلاحون. ومن ثم ، فالبيئة الطبيعية سوف تبقى عاملا معرقلا لإمكانية قيام فلاحي هذه الجهة بمبادرات تربية ماشية الإناث بصفة عفوية. أي أن ما سميناه «بحتمية البيئة» الطبيعية سوف يظل مؤثرا قاهرا لا يشجع على انتشار ظاهرة تربية أنثى الماشية في هذه المنطقة الفلاحية. وبعبارة أخرى، فالإقبال على تربية ماشية الإناث في تلك الجهات يبقى ، من وجهة نظر بيئية ، بديلا غير ممكن. وفي المقابل، فإن تغيير نسق القيم الثقافية التي تنفر من تربية ماشية الإناث يعد أمرا ممكنا. فكما رأينا، فإن تربية ماشية الإناث خاصة من الحمير والبغال والخيول يعتبره سكان تلك المنطقة من قبيل العار والسلوك المشين. وهذه الرؤية أصبحت سائدة في نسق القيم الثقافية للأفراد. فأضحت وكأنها نوع من الاعتقاد والتقليد عند أغلبية السكان. إن دراسات العلوم الاجتماعية الحديثة لظاهرة الثقافة تفصح بما لا يدع مجالا للشك بأن تغيير الملامح الثقافية (من عقائد وقيم ثقافية وشعائر تقليدية وعادات سلوكية...) ليس بالأمر الهيّن . فالعناصر الثقافية طالما تبدي مقاومة عنيدة أمام مؤثرات التغيير . وحتى إن قبلت بالتغيير فهي تظهر تباطؤا ملحوظا مقارنة بخطى التغيير السريعة التي يسير عليها نمط التغيير في العناصر المادية في المجتمعات. وهكذا، استنتج عالم الاجتماع الأمريكي وليام أجبورن مفهومه الشهير لـ «الهوة الثقافية»(Cultural Lag. Ogburn، 1964 :86- 95) . ورغم ذلك التباطؤ وتلك المقاومة ، فإن إمكانية إحداث التغيير في مراكز وهوامش الأنساق الثقافية تبقى إمكانية واردة لا تكاد تعرف الاستحالة المطلقة إذا توفرت الشروط اللازمة لذلك . فمن الوجهة النظرية ، يمكن القيام بحملات توعية في هذه المنطقة لاجتثاث الصورة السلبية لأنثى الماشية من نسق القيم الثقافية لسكان مدينة رأس الجبل والقرى المجاورة لها . هناك طرق متعددة

يمكن تبنيها في هذا المضمار. ويأتي في طليعتها استعمال نسق قيم الدين الإسلامي الذي ينادي بأهمية تربية الذكر والأنثى في جنس الأنعام «ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه» وينتقد بشدة إقصاء الأنثى من الوجود «وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ؟ « . وليس من المستبعد – باللجوء إلى هذه الوسيلة وغيرها من الخطط – أن تتغير صورة أنثى الماشية «العار» إلى صورة أنثى الماشية «المحترمة» والمرغوب في تربيتها. ولكن هذا التغيير المحتمل في بنية نسق القيم الثقافية إزاء تربية ماشية الإناث يصعب أن ينمو تأثيره ويقوى في دنيا واقع الممارسة اليومية دون أن تصبح الظروف البيئية الفلاحية قادرة على تحمّل تربية أنثى الماشية وانعكاساتها على الموارد الطبيعية الصالحة والمحدودة للنجاح في تربية عدد أكبر من الماشية من الذكر والأنثى. وكما أكدنا ، فالظروف الموضوعية لموارد وطاقات البيئة الطبيعية لهذه المنطقة الفلاحية لا تسمح بإطلاق عنان تربية ماشية الإناث . وفي هذا الوضع ، فإن مقولة كل من ابن خلدون وماركس لا ترى سهولة/إمكانية تبلور وعي قيمي بين سكان هذه المنطقة يزكي إيجابية تربية ماشية الإناث على نطاق واسع طالما أن الظروف المادية على ساحة البيئة الزراعية لا تساعد على ذلك . فبينما يقول ابن خلدون بهذا الشأن «اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش» ، فإن ماركس يؤكد على أنه «ليس وعي الناس هو الذي يحدد واقعهم الاجتماعي ، بل بالعكس ، فإن واقعهم الاجتماعي هو الذي يحدّد وعيهم» . أي أن واقع محدودية المساحات الأرضية الصالحة لتربية عدد أوفر من الماشية وبالتالي محدودية الموارد لتلبية حاجات العلف الكافي للعدد المتزايد لرؤوس الماشية كنتيجة لتربية الماشية يبقى هو العامل الحاسم والذي لا يمكن القفز عليه في أي استشراف واقعي لمستقبل تربية أنثى الماشية في هذه المناطق من الشمال الشرقي التونسي . وهكذا ، فمعطيات قضية تربية ماشية الإناث في هذه المناطق لا تسمح بالتفاؤل بخصوص حدوث تغيّر جذري وسريع في النفور من تربية أنثى الماشية خاصة في ماشية الحمير والبغال والخيول . وأن وجود التربية المحدودة جدا لماشية أنثى البقر ، كما رأينا في كل من مدينة رأس الجبل ورفراف لا يعني ، من ناحية، أن هذه الظاهرة سوف تزداد كما هو الحال في الازدياد المهول في تربية البقر الحلوب في أتيك وعوسجة مثلا. ولا يعني، من ناحية أخرى، أن تربية البقر الحلوب سوف يؤدي حتما إلى انتشار تربية الأنثى من الخيول والبغال والحمير. وهناك ثلاثة عوامل تؤثر على ممارسة تربية البقر الحلوب ولا تشجع، في المقابل، على تربية الماشية الأنثى من البغال والحمير والخيول :

1. ترتبط تربية البقر الحلوب بمنافع اقتصادية مهمة للفلاح . ولا تأتي أهميتها فقط من المردود العالي للحليب الذي يتم بيعه يوميا بل ترجع أهميته لكون أن المحاصيل المالية من الحليب تكاد لا تنقطع على مدار اثني عشر شهرا من السنة الأمر الذي جعل بعض الفلاحين يتحدثون عن محاصيل الحليب المستمرة والدورية (كل شهر مثلا) وكأنها راتب يتقاضاه الفلاح كما يتقاضى الموظف راتبه في القطاع العام أو الخاص.
2. إن أولاد البقرات الحلوبة (أي العجول) لطالما يتم التخلص منها في سن مبكرة . وهذا يعني أمرين إيجابيين بالنسبة للفلاح :
   (أ) تحاشي اكتظاظ المساحات المحدودة من الأراضي
   (ب) توفير كمية أكبر من الحليب المعدّ للبيع .
3. بدا من استجواباتنا لعينة الفلاحين من رأس الجبل ورفراف أن هناك قبولا أكبر بين سكانهما لتربية ماشية أنثى البقر وذلك مقارنة بالموقف الأكثر تشدّدا من تربية إناث الحمير والبغال والخيول. وبعبارة أخرى ، فنسق القيم الثقافية يبدو أنه يتسامح أكثر مع تربية ماشية البقر الحلوب.

آفاق تغيير صورة المرأة في تلك المناطق

إن الصورة السلبية للمرأة في هذه المنطقة بسبب نسق القيم الثقافية التقليدية، وربما أيضا بسبب المساهمة الجزئية لظاهرة الاقتصار على تربية ماشية الذكور في ذلك لا تعني بأي حال من الأحوال أن صورة المرأة مكتوب عليها أن تبقى في تلك الوضعية. وثمة ثلاثة عوامل رئيسية تدعو للاستبشار بما حققته المرأة التونسية في الحاضر وما يُنتظر تحقيقه في المستقبل. هذه العوامل الثلاثة هي :

1. انتشار التعليم بين صفوف جنس الإناث بالمجتمع التونسي الحديث .
2. تزايد خروج المرأة إلى سوق العمل في مجالات مختلفة .
3. وجود تشريعات تقدمية لصالح المرأة .

تجسمت هذه العوامل الثلاثة في الواقع بعد حصول تونس على استقلالها في عام 1956. فسياسات الحكومات التونسية المتعاقبة منذ الاستقلال تركز على تشجيع الفتاة والمرأة على التعليم من المستوى الابتدائي إلى المستوى الجامعي. كما أن المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية والمعاهد العليا والجامعات التونسية تتبنى سياسة اختلاط الجنسين خلافا لما هو معمول

به في العديد من المجتمعات العربية المعاصرة. فالفتاة والمرأة التونسية المنحدرتان من مناطق الشمال الشرقي التونسي تتمتعان بنفس الحقوق التي تتمتع بها الفتيات والنساء التونسيات في بقية مناطق المجتمع التونسي بالنسبة لفرص التعليم.

1. تؤكد الدراسات السوسيولوجية في هذا المضمار بأن التعليم هو أكثر العوامل التي تؤثر في تأهيل الفرد لدخول عالم الحداثة (Lerner، 1964). فالفتاة أو المرأة المتعلمة تصبح ، من جهة، أكثر قدرة على التفاعل مع مجتمعها المحلي والكبير ، ومن ثم تعطي صورة أكثر إيجابية عن نفسها وطاقاتها الكامنة إذا ما قورنت بالفتاة أو المرأة الأمية . ومن جهة ثانية ، فالتعلم وكسب المعارف يزيد من ثقة المرأة بنفسها ويجعلها أكثر تجاسرا على محاولة التحرر من بعض التقاليد غير الأصيلة . ولكن هذا لا يعني ، أن انتشار قيم الحداثة يمثل نهاية تأثير التقاليد . فبنية الذكورة في المجتمع التونسي وانتشار عقلية تقليدية محافظة وذات رؤية سلبية للمرأة ، كما رأينا، في هذه المنطقة قد يعرقل، في حالات محدودة جدا ، مسيرة الفتيات الناجحات في دراستهن وذلك بسبب قرار العائلة بأن تعليم الفتاة لا ينبغي أن يتجاوز مرحلة متواضعة أو أن الأولوية بالنسبة لفتاة المرحلة الثانوية هو الزواج ، كما ترى بعض العائلات ، وليس النجاح والدخول إلى الجامعة . وليس من النادر في الماضي القريب على الخصوص أن تقتنع الفتاة بما يعرضه الوالدان عليها تحت وطأة قوة التقاليد وبعض المغريات المادية وغيرها التي يوفرها الزواج.
2. إن خروج المرأة من المنزل ودخولها سوق العمل من بابه العريض يمثل هو الآخر عاملا رئيسيا بالنسبة لمسيرة المرأة التونسية نحو الحداثة. فعالم الاجتماع ألكس إنكلس Alex Inkeles يرى أن تجربة العمل في المؤسسات الحديثة كالمصانع والإدارات وثكنات الجيش تعلّم العامل والعاملة بها الكثير من صفات الحداثة كالانضباط بالوقت وأهمية عنصر التنظيم وعقلنة مجرى الأحداث (Inkeles، 1976). فالمرأة قد اقتحمت بقوة في هذه الجهات سوق العمل في قطاعات التعليم والمؤسسات الإدارية والبنكية وغيرها. أما عن دخول الفتيات في هذه المنطقة سوق العمل خاصة في مصانع الملابس فحدّث ولا حرج. ولكن عمل الفتاة طالما يوضَع له حد عندما تدخل الفتاة شراك الزواج . فعائلتها تنصحها بذلك لأنه لم يعد هناك، في نظرها، مبرر لاستمرارها في العمل بعد أن أتمت شراء لوازم كسوة الزواج وبعض أثاث المنزل. وبالتعبير العامي التونسي لا ضرورة لعمل الفتاة بعد أن

أكملت «تجهيز نفسها» . أما زوج الفتاة فقد يرفض استمرارها في العمل بسبب اعتقاده أن عمل المرأة خارج المنزل أمر مشين أو أنه يتعارض مع ما يتطلبه المنزل والأولاد من عناية. وهكذا يتضح بأن الانفتاح على عناصر الحداثة وممارستها لا ينهي نفس مقاومة التقاليد للكثير من ملامح وأخلاقيات الحداثة التي تعرضت إليها هذه المنطقة منذ الاستقلال. فالصراع أو الحضور معا بين الموروث الثقافي للمجتمع التونسي وبين عناصر الحداثة الغربية واقع قائم على قدم وساق في هذه الجهات من الشمال الشرقي التونسي.

3. إن التشريعات التقدمية التي سُنّت وتُسّن لصالح المرأة التونسية وُلدت مع حصول تونس على الاستقلال وذلك عن طريق نشر ما أصبح يسمى بمجلة الأحوال الشخصية التي زكى بنودها الرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة. ومن أكثر القوانين جرأة في هذا الصدد هو قانون منع تعدد الزوجات بالمجتمع التونسي . وهي سابقة لا مثيل لها في العالم العربي اليوم. واستمرت التشريعات الإيجابية لصالح المرأة التونسية بعد الثورة. فمما لاشك فيه أن الإطار التشريعي التقدمي لفترة ما بعد الاستقلال لا بد أن يؤخذ بعين الاعتبار في أي تقييم واستشراف مستقبلي لصورة المرأة في هذه الجهة من الشمال الشرقي التونسي والمجتمع التونسي عموما .

الخاتمة :

إن التقيد الكامل من طرف الجميع بأعراف وقواعد وجوب ختان الأطفال الذكور المسلمين في المجتمعات العربية ومنع تربية الماشية الأنثى في الشمال الشرقي التونسي ظاهرتان لافتتان للنظر للباحثين في العلوم الاجتماعية، وخاصة لأصحاب الفضول المعرفي الكبير. وكما بيّنت مقولةُ هذا البحث، فإن علم الاجتماع الحديث لا يُقر ظاهرة الطاعة الكاملة من طرف جميع الناس لبعض القواعد والأعراف الثقافية الأمر الذي يجعل ثقافة المجتمعات العربية الإسلامية صاحبة لمسات خاصة يلخصها مفهوم ما سميناه في هذه الدراسة 'التأثير الاجتماعي الكامل». وهو أمر يؤهل علم الاجتماع العربي لكي يأخذ بعين الاعتبار خصوصية المنظومة الثقافية للمجتمعات العربية الإسلامية.

يحتاج فهمُ ظاهرتيّ هذا البحث إلى رؤية علم اجتماع المعرفة وذلك لمعرفة طبيعة جذورهما. فتربية ماشية الذكور فقط في الشمال الشرقي التونسي تعود إلى أسباب بيئية/إيكولوجية كما وقع

شرح ذلك في متن هذه الدراسة بتحديد تلك الأسباب في عوامل مادية تتمثل في ضيق مساحات الأرض في تلك المنطقة من القطر التونسي الأمر الذي لا يسمح بتربية الماشية الأنثى التي تعمل على زيادة رؤوس المواشي في هذه المنطقة الضيقة المساحات. أدت هذه العوامل المادية إلى بروز عرف ثقافي لا يمنع سكان المنطقة من تربية أنثى الماشية فقط، بل يعتبرها أيضا وصمة عار اجتماعي. ومن ناحية أخرى، فوجوب ختان كل الأطفال المسلمين في المجتمعات العربية هو حصيلة لاعتقاد ديني إسلامي وقيمة ثقافية شائعة ترى أن الختان رمز للذكورة الحقيقية للرجل. فعُرفُ ممارسة الختان لجميع الذكور المسلمين في البلدان العربية هو نتيجة لعاملين ثقافيين بارزين في المنظومة الثقافية للشعوب العربية، ألا وهما العقيدة الإسلامية والقيمة الثقافية للختان كعلامة على ذكورة الرجال. وهكذا، تتجلى أهمية قيمة الذكورة في الظاهرتين موضوع هذا البحث. وخلاصة القول تتمثل في تضافر تأثير العوامل المادية/البيئية والعوامل الدينية الثقافية على ربط ذكورة الرجل وتمام إسلامه بعملية الختان في فترة الطفولة المبكرة على الخصوص. ومن ثمّ، يمكن القول إن الظاهرتين هما نتيجة لثقافة الذكورة القوية السائدة في المجتمعات العربية على المستويين الصغير/الميكرو والكبير/الماكرو مما جعل الانحراف عن معاييرها الثقافية أمرا غير وارد من طرف الجميع.

الهوامـــش

1. لعل هذا البحث هو الأول من نوعه حول ظاهرة الماشية الذكورية ودلالاتها بالمجتمع التونسي. إذ إننا لم نعثر على دراسات في هذا الموضوع في أدبيات العلوم الاجتماعية التونسية. كما أن الزملاء يجمعون على جدة وطرافة دراسة هذه الظاهرة.أما بالنسبة لتنبهنا لهذه الأخيرة واهتمامنا بدراساتها فذلك يرجع إلى سببين: (أ)انحدارنا من منطقة قريبة من مكان الظاهرة. (ب) قيامنا بدراسة الاختلافات الخطابية بين الذكور والإناث كما يتجلى ذلك في (ت) الفرق بين «الفرنكوأراب» الأنثوية والذكورية.(ث) استعمال النبرة الباريسية لنطق حرف (r) عند المرأة التونسية وقلة اللجوء إلى ذلك عند الرجل التونسي.(ج) ظاهرة «الدعا» عند النساء والسباب عند الرجال. ونظرا لانعدام الدراسات العلمية وعدم الحصول على معطيات من وزارة الفلاحة التونسية حول الظاهرة قيد الدرس ، فإننا اعتمدنا على جهودنا الخاصة وجهود من ساعدونا في هذا البحث وتأتي في طليعتهم الطالبة بسمة بن نجمة بالسنة الثالثة بالجامعة. أنظر دراساتنا : (م)جذور الفرنكوأراب الأنثوية بالمغرب العربي، شؤون عربية عدد 22/ديسمبر 1981.(ك) الدلالات النفسية والاجتماعية للنبرة الباريسية عند المرأة التونسية. جريدة الصباح 1992/6/2 و (ن)»الدعا» والفرنكوأراب عند المرأة المغاربية 1992/10/5، جريدة الحياة.

2. لا تملك تلك المناطق أساسا حقول حبوب مثل القمح والشعير وإنما تنتشر زراعة أشجار بعض الغلال والحمضيات كأشجار البرتقال والليمون والتفاح والمشمش والتين والعنب . كما تزرع في المناطق المذكورة بعض أنواع الخضر مثل الجزر والمقدونس والكرنب والبطاطس ... فالمساحات الفلاحية هنا مساحات صغيرة لا تسمح بتعاطي زراعة الحبوب . فأراضي هذه المناطق تغلب عليها التلال والهضاب والجبال.
3. يبلغ عدد سكان مدينة رأس الجبل حوالي 50.000 نسمة، أما قرى رفراف وغار الملح والماتلين فيقدر عدد سكانها بما يقرب من 7.000 فردا. وبالنسبة لسونين فهي أصغر هذه القرى جميعا ولا يكاد يزيد عدد سكانها عن أكثر من 4500 ساكنا.
4. إن الابتسام والضحك اللذين تثيرهما عند المشاهدين أحداث برامج ما يسمى بالكاميرا الخفية على شاشات المحطات التلفزية مثال حيّ لمنظور الأثنوميثودولوجيا.
5. وهذا ما ذكره لنا أحد أبناء الفلاحين بخصوص اللوم والاحتجاج والوصم بالعار الذي تعرض به أحد أقاربه في مارس 1993 لأنه تجاسر على شراء حمارة ! علما أن هذا الشخص يسكن بقرية صغيرة تسمى «باجو» . وهي لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن قرية غار الملح.
6. فعلى سبيل المثال، ينتظر أن تزداد نسب سلوكات الجنسية المثلية في كل من السجون والثكنات.
7. أنظر ملف : العرب و«قمة الأرض» ، المستقبل العربي، عدد 167 ، يناير 1993، ص 79-120.
8. تأثر تذكير آلات التكنولوجيا بالثقافة الذكورية في عالم الحيوانات. فالتونسيون عامة يطلقون ، من ناحية، كلمة كميون الفرنسية camion المذكرة على الشاحنة الكبيرة ومن ناحية ثانية، يستعملون كلمة كميونات camionette المؤنثة على الشاحنة الصغيرة. أما سكان مدينة رأس الجبل وما جاورها من قرى فإنهم يتحاشون استعمال كلمة كميونات للإشارة الى الشاحنة الصغيرة. بل هم يقتصرون على استعمال كلمة كميون camion المذكرة لإطلاقها على كل من الشاحنة الصغيرة والكبيرة على حدّ سواء.

المراجـــع
بالعربيــة

- محمود ،الذوادي (2015) البعد الثالث للإنسان، مفهوم عربي لتأصيل المعرفة في الطبيعة البشرية وفهم تضامن وفُرقة الشعوب، إضافات، العددان 29-30 .
- أنظر أيضا الدراستين حول الرموز الثقافية في : 1)المستقبل العربي ، العدد 156، فبراير 1992 ، ص 32-45 : مفهوم «عالم الرموز» عند الإنسان وفهم طبيعة عملية التأثير والتأثر الثقافيين بين الشعوب. و2) الوجه الآخر لعالم الرموز الثقافية كما تعكسه قراءة سوسيولوجية غير عادية ، الوحدة ، عدد 92، مايو 1992 ، ص 75-89.

- محمود الذوادي (2006) الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث ، تونس ، تبر الزمان.
- هشام، شرابي (ترجمة محمود شريح) : النظام الأبوي : إشكالية التخلف في المجتمع العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية 1992.

بالإنجليزية والفرنسية

- Calhoun،G. editor (2007) Sociology in America: A History، Chicago، the University of Chicago Press.
- Chebel،M (1997) Histoire de la circoncision des origines à nos jours، Paris، Editions Balland.
- Encyclopedia of Psychology (1973) Guilford، Conn (USA) The Dushkin Publishing Group. Inc، 1973، p.280
- (2) أنظر مفهوم الانحراف : Deviance في :
- Encyclopedia of Sociology (1974) Guilford، Conn (USA) The Dushkin Publishing Group. Inc،
- Festinger، L.(1957) A Theory of Cognitive Dissonance، New York، Harper.
- Gollaher،D.L(2000) A History of the World's Most Controversial Surgery، New York، Basic Books.
- Inkeles، A.(1976) ، Becoming Modern، Cambridge، Harvard University Press.
- Lerner، D.(1964) The Passing of Traditionnal Society : Modernizing The Middle East، New York، Free Press.
- Ogburn، W.F.(1964) On Culture and Social Change، O.D.Durcan (Ed)، Chicago، University of Chicago Press:
- Ritzer، G.(1983) Sociological Theory، New York، Alfred A.، Knopf، 1983.